

إيمانويل كانط: المنعرج الإبيستمولوجي للأنثروبولوجيا الفلسفية

Immanuel Kant: the Epistemological Juncture of Philosophical Anthropology

علاء جواد كاظم*. جامعة القادسية، العراق Alaa.jawad.obada@gmail.com

تاريخ النشر: 2021/06/05

تاريخ القبول: 2021/05/05

تاريخ الإرسال: 2020/10/20

ملخص

شكل النظام الفلسفي العظيم الذي تركه (إيمانويل كانط) بمثابة ثورة (كوبرنيكوس) التي انتقلت بالأفكار الكانطية من مستوى الفلسفة إلى مستوى الأنثروبولوجيا، من مستوى الميتافيزيقيا المتعالية إلى مستوى الإنسان المحض الأرضي، كما وُعدت أنظمة (كانط) المعرفية بمثابة ثورة إبستمولوجية على مستوى العلوم الانسانية؛ التي بدأت بتسليط الضوء على طريقة الفكر البشري برؤية الواقع على وفق الموقف النهائي للعقل، وليس الانشغال بواقع ساذج لا يعطي أي أهمية للعقل الانساني في تعامله مع عوالمه وحياته اليومية، وكذلك عمدت تلك العلوم على وفق الابستمولوجيا الجديدة إلى استعادة الإنسان في حركته وفعاله ومواقفه وافكاره في واقعه الاجتماعي المحض. توالى أفكار العودة إلى كانط، الذي مارس تأثيراً لا ينتهي في تشكيل أنثروبولوجيا فلسفية واضحة المعالم، بدأت بأعمال كل من كيلفورد غيرتز، وماركوس وتجددت بشكل نهائي في أعمال رابينو الأنثروبولوجي الذي نقل كانط بكل ملحقاته النظرية وتعقيداته المعرفية إلى الأنثروبولوجيا الفلسفية الجديدة؛ ذاهبا إلى اعتبار أن (كانط) سيشكل أساساً إبستمولوجياً عميقاً لكل نظرية أنثروبولوجية قادمة.

الكلمات المفتاحية: إيمانويل كانط، المنعرج الإبيستمولوجي، الأنثروبولوجيا الفلسفية

Abstract:

The great philosophical system that Immanuel Kant has left behind formed a revolution as significant as Copernicus's revolution,

* المؤلف المرسل

which moved the Kantian ideology from the philosophical level towards the anthropological level, from the prejudiced metaphysical level towards the pure humanitarian down-to-earth level. In addition to the fact the Kant philosophy is considered as an epistemological revolution among Arts and Humanities sciences. A science that shed light on the way human thinks, looking at the reality according to the final stance of the mind, rather than being busy with a naïve reality that does not give importance to human mind while dealing with everyday activities. These worlds intended according to the new epistemology to return human beings to their movement, actions, ideas, and pure social reality.

Kant ideas of return reoccurred, a matter that endlessly affected the formation of a clear philosophical anthropology, starting with the works of Clifford Geertz and George E. Marcus. It was finally shaped by Paul Rabinow, the anthropologist who transformed Kant with all of his theories and knowledge complexity toward a new anthropological philosophy. The latter saw Kant as an epistemological base for all of the coming anthropological theory.

Keywords: Immanuel Kant, the Epistemological Juncture, Philosophical Anthropology

مقدمة:

جاء تعبير المنعرج الاستمولوجي (*Epistemological Juncture*) في عنوان هذا البحث، لكي يساعد القارئ المختص وغير المختص ويمكنه من ان يميز بحذر شديد بين القاعدة الابستمية للنظرية الانثروبولوجية التي تشكلت قبيل الحرب العالمية الاولى بناء على تعاليم أوكست كومت الوضعية الطموحة، والتي نعدها الاساس الصلب والمنطقي للأنثروبولوجيا التقليدية الكلاسيكية التي قادها (راد كليف براون (A. Radcliffe-Brown) وبرانسلاوا مالينوفسكي (*B.Malinowski*) وبين الاسس المعرفية للأنثروبولوجيا الفلسفية الحديثة التي ثنايا البحث عن أسسها الكانطية.

فقد دفعت مأساة الحرب العالمية الثانية وما ترتب عليها في اوربا على الانسان والمجتمع، الى التفكير طويلا بإعادة النظر في الاسس الابستمولوجية للأنثروبولوجيا الفلسفية، وقد مثل كل من كلود

ليفى شتراوس، وكليفورد غيرتز (C.Geertz)، وجورج ماركوس (G. E. Marcus)، وراينو (P. Rabinow) انطلاقة كبيرة للمنعرج الابستمولوجي التفسيري الذي هيمن عليه التأثير الالمانى لفلسفة كانط (I. Kant)..

يحاول هذا البحث ان يستعرض بإيجاز مراحل المنعرج الكانطى من الفلسفة الى الانثروبولوجيا، ووضع الكثير من ملامح هذا المنعرج والقواعد الجديدة التي تأسست عليها الانثروبولوجيا الفلسفية المعاصرة، فضلا عن استعراض اهم افكار انثروبولوجي المنعرج الجديد، وأن يتعرض الى نشأة النظرية الجديدة للأنثروبولوجيا الفلسفية، قصد شرح طبيعة المسارات التي اتخذتها هذه الانثروبولوجيا الفلسفية.

أولاً: كانط (*) والمنعرج الابستمولوجي للأنثروبولوجيا الفلسفية

شكّل كانط اساساً ابستمولوجياً عميقاً لكل نظرية انثروبولوجية قادمة (Paul، 1997) هكذا أعلن الانثروبولوجي الكبير بول راينو (P.Rabinow) منذ سبعينيات القرن المنصرم وبناء على هذا الاعلان عُد كانط منعرجاً ابستمولوجياً هائلاً مارس تأثيراً كبيراً في صياغة قواعد الأنثروبولوجيا الفلسفية المعاصرة.

فقد تبلور أبتداءً من القرن الثامن عشر الذي عرف بعصر (التنوير) فصل جديد من الايمان المطلق بالعقل واطلاق طاقاته وقدراته في شتى ميادين المعرفة، لكن كانط قفز على كل ذلك، مفترضاً أن اشكالية العصر ابعده من ذلك بكثير؛ التنوير هو التعبير الادق لإنعقاد المرء من حالة العجز الذاتي. التي هي عدم قدرة المرء على استخدام فهمه الخاص دون توجيه الآخر، ومرد ذلك كامن في نقص في (ملكة الفهم)، وهو بالأحرى نقص في الشجاعة والاقدام لاستخدامها دون إرشاد الاخر. لذلك، يكون شعار التنوير إذن: تحلّ بالشجاعة لإستخدام عقلك بنفسك (كانط، ما التنوير، 2015) هذا يعني انه ما لم يُمكنّ التنوير الإنسان من الخروج على كل أشكال التبعية التي تلفه، ما لم يمتلك الانسان شجاعة استخدام عقله بنفسه، سنكون في مواجهة هذا العصر بوصفه معيقاً لحرية الانسان وتشكيله للعقل الحديث.

* - إيمانويل كانط (1724 - 1804) فيلسوف ألماني ظهر بقوة في القرن الثامن عشر. في مملكة بروسيا. كان آخر الفلاسفة المؤثرين في الثقافة الأوروبية الحديثة. وأحد أهم الفلاسفة الذين كتبوا في نظرية المعرفة الكلاسيكية. وآخر فلاسفة عصر التنوير الذي بدأ بالمفكرين البريطانيين جون لوك وجورج بركلي وديفيد هيوم.. واحد من أكثر أعماله شهرة هو (نقد العقل الخالص) يعتقد الباحث انه ترك القواعد الرئيسية لنشوء الانثروبولوجيا الفلسفية.

عُدت هذه العبارة الممهد الرئيس لولادة الانقلاب الانثرو-فلسفي، فقد تضمنت العبارة تحولا هائلا في مرتكزات الثقل الفلسفي من ديكارت الى كانط (R.Descartes-Kant) وإذا كان النقاش الفلسفي حول دلالة العقل قد خضع في القديم لهيمنة الفلسفة الأرسطية (Aristotelian philosophy) وتحدد إطاره الإشكالي بذلك التمييز الأرسطي بين العقل الفعال والعقل المنفعل، فإن التحول الطارئ في العصر الحديث الذي أخذ يؤكد انتقال النظرة إلى العقل من كينونته كجوهر إلى كينونته كأداة، كان لا بد أن يتقاطع مع النقاش الأرسطي، ويلتفت إلى سؤال إمكانات العقل وحدوده، مع كل من لوك وهيوم ثم مع كانط.

هذا الانتقال كان قد أثار الكثير من الشجن والأزعاج عند الكثيرين من منظري التحول الابستيمي، فبعد قرنين من الزمن، من هذا التحول، كتب ديفيد هارفي (D.Harvey) يقول: "ها نحن نواجه احدى قضايا تاريخ الحدائثة الاكثر مكررا والاكثر ازعجا، ان التحول من (الانا افكر) الى (الانا اشعر) انما كان يؤشر الى تحول حاسم من استراتيجيات عقلانية أدواتية الى استراتيجيات جمالية أكثر وعيا في تحقيق اهداف التنوير. ورغم الهجوم الذي قاده فرانسيس بيكون (F.Bacon) في الاورجانون الجديد (New Organum) ومن بعده ديكارت ضد هيمنة المنطق الارسطي وطبيعة الاستقراء الذي نجم عنه، فان هذا لم يقههما من النقد العنيف الذي وجهه كانط اليهما. (هارفي، 2005)

إن تحرير العقل من الهيمنة الأرسطية الذي بدأ مع بيكون وديكارت، عاد الى كانط بشكل نهائي^(*) فلم يتوصل التيار الرئيس لعصر الانوار الى تفاهم مناسب مع التوتر الحاصل بين وجهة نظره النسبية حول كل شيء في العالم، وبين وعيه المتميز الذي منح الذات الكثير من المزايا. وينسب المختصون في تاريخ الفلسفة مواجهة هذا التناقض بوصفه من المنجزات العظيمة التي تقدم بها كانط. والحق أنه كان واضحا كل الوضوح في تفسير هذه المشكلة:- كل شيء داخل الطبيعة خاضع في الحقيقة لنواميسها، الا المعرفة ذاتها تقع خارج وفوق الثقافة. (Jacobs، 2003)

* - ساهم (ديكارت) في دعم الانتقال من كونية العقل إلى (ذاتيته) اعتبرها هوسرل (E. Husserl) الاكتشاف الديكارتي الأهم الذي بقي بدون استثمار عند ديكارت، عند هذه النقطة أخذ كانط (العقل والذات) موضوعا رئيسا لاشتغالاته النقدية القادمة، أخذاً على الفلاسفة مبالغتهم وكل ذلك التقدير وتلك السلطة الاستبدادية المطلقة للميتافيزيقا معتبرا إلى فيزيولوجية العقل البشري التي كان جون لوك (J.Locke) قد رسمها، والتي رغم كونها أفادت في المساس بسلطة الميتافيزيقا والكشف عن محدودية قدرات الفهم البشري، فإنها سقطت (حسب كانط) في المجال التجريبي العام.

عداً كانط ان كل ما في الطبيعة (الانسان في مقدمتها) مرتبط بالسببية العلية، وهو ما يحيلنا الى نوع من النسبية خاصة حينما يطبق ذلك على الثقافات؛ لكنها تستثنيان نحن بوصفنا عناصر اخلاقية وادراكية في نظام الطبيعة، وتسمح لنا بالوصول الى المعرفة والفضيلة الاخلاقية بكل ما يميزها من فريدة وصحة. وذهب كانط في أغلب أعماله الى تفسير (الانسان) وإعطاءه المكانة المركزية في تفسيراته الفلسفية:

اننا (نحن) من خلق العالم، وانه ليس سوى ظل لعقلانيتنا، ولهذا السبب بالذات لا نكون جزءا منه، لا يمكننا مشاهدة ذواتنا بوصفها عناصر عقلانية، تبعاً لرؤية كانط ومناقشاته، ولكن بإمكاننا الاستدلال بدقة على وجود ذواتنا كعناصر عقلانية من خلال قدرتنا على تجربة واختبار الالتزام النظري المفهومي والاخلاقي، فالعالم الطبيعي المرتب الخاضع للقانون، والفضيلة الاخلاقية المرتبة الملتزمة بالقانون، كلاهما من خلقنا نحن، حيث يؤلفان الدليل الحاسم على ان ذواتنا الحقيقية تقف خارج الطبيعة التي صنعنا (كانط ا، 1964)

إن قيمة المشروع الفلسفي الكانطي ترجع إلى ما يمكن التعبير عنه بالقول: إن العقل في النسق الثقافي قبل كانط، كان يتحدث عن غيره، فأصبح مع مؤسس مشروع (نقد العقل) يتحدث عن نفسه، وهو يعكس بلا شك انتقالا جبارا من المستوى الأنطولوجي إلى المستوى الإبيستيمولوجي الذي سينتهي إلى تأسيس فلسفة وصوغ مفهوم للعقل وبالتالي للإنسان؛ أكثر تفصيلا وعمقا وتصنيفا لمكوناته وتجهيزاته الداخلية، إلى درجة جعل البعض (الطيب، 2013) يصف كانط بأنه (رسام العقل) إلا أن هذا المرسم العقلي الذي وضع كانط أسسه، ليس مجرد خطوة حاسمة لولادة إبستمولوجيا حديثة بل وهذا الأهم كان خطوة عظيمة لولادة (الأنثروبولوجيا) كوجود عياني دقيق ومهم.

لقد ذهب كانط الى ان تساؤلاتنا عن العالم ينبغي ان تبدأ بتساؤلاتنا عن الانسان اولاً، وحجم قدرته على المعرفة ثانياً، وطبيعة تلك المعرفة ثالثاً، وهذا يرتبط بالعلاقة التي يقيمها العقل مع العالم ولا يتوقف على البنى العقلية بذاتها. فالمبدأ الأول عنده يكمن في "ان معرفتنا لا توسع دائرتها بأي شكل من الاشكال بواسطة الاحكام التحليلية، وان كل ما لهذه الاحكام من فعل هو ان تضع المعاني التي تمتلكها في نظام افضل وتجعلها اشد جلاء ووضوحاً" (كانط، ما التنوير، 2015)

في الحقيقة شكلت هذه الفكرة بمثابة (ثورة كوبرنيكوس) على مستوى الفلسفة والانثروبولوجيا، انها ثورة إبستمولوجية على مستوى العلوم الانسانية: "قبل تأمل الواقع ينبغي تأمل الفكر" (كانط، ما التنوير، 2015). بمعنى اننا يجب ان نسلط الضوء على طريقة الفكر البشري برؤية

الواقع على وفق الموقف النهائي للعقل، ولهذا نذهب هنا الى اعتبارها المقولة الاهم، والتي ستتركز عليها لاحقاً ما يأتي:

- 1- البناء الاستمولوجي لاثروبولوجيا فلسفية متكاملة.
- 2- نظرية ما بعد الحداثة بشكل عام وفي الاثروبولوجيا بشكل خاص. واذا راجعنا الاجابة التي تقدمت في فلسفة كانط حول السؤال الأهم لفلسفة القرن الثامن عشر بحسب ما رأى وقرر هو :- ماهي طاقات الفكر الانساني وحدوده ؟

سيظهر لنا جوابه حاسماً في تعيين القضيتين الاساسيتين اللتين المحنا لهم اعلاه من خلال موقفه من العقل؛ يجيب كانط: "نحن لا نعرف العالم كما هو، بل كما يستطيع عقلنا تصوره. ان حُكمتنا محدود بأطرنا العقلية ولا ينبغي ان نطلب من العقل أكثر مما يقدر عليه". (كانط، ما التنوير، 2015) وههنا يتضح لنا بجلاء ان المعرفة البشرية التي ينظمها الفهم، وتنبع من الحساسية وتصورات الذهن، لها بتصوير (كانط) شروطها الواقعية حتى ولو لم تتمكن ابدا من ان تحيط بالعلة العليا. (كانط، ما التنوير، 2015). ربما تُقدم لنا الاقتباسات الكانطية الانفة، دليلاً حاسماً لا يقبل الشك على إهتمامه بالنقد الكلي لقدرات (العقل البشري) المعرفية وبيان حدود هذه القدرات قبل تجربة المعرفة والإدراك؛ للكشف عن المبادئ العقلية الأولية الخالصة التي تؤسس التجربة البشرية وتجعلها ممكنة، وبالتالي تحديد إمكان المعرفة لبيان ما يمكن وما لا يمكن معرفته، الى هنا بات واضحاً وجلياً انشغال كانط؛ بالعقل والذات العارفة أكثر من إنشغاله بالمعرفة نفسها وبواقع تجربتها.

لقد برهنت الرؤية النقدية لكانط على أن المعرفة الإنسانية لا تملك القدرة على اجتياز الحدود التي تفرض عليها من البنى القبلية للعقل البشري، ومن ثم لا يمكن لهذه (البنى) الوصول لأدراك المطلق، إلا أنها لم تذهب إلى حد الشك في جميع المعارف وجميع الحقائق، بل تركت الباب مفتوحاً أمام إمكانية قيام العلم وأمام الاستمرار المشروع للإيمان (الحداثة، 2018)..

ثانياً: نقد الحداثة أو العودة الى كانط

يتعين على الفلسفة ان [تكتشف] في الحداثة شيئاً كان (نيتشه) يحدده كشيء ضد الزمان، أي شيء ينتهي الى الحداثة، ولكنه في الوقت ذاته ينبغي ان ينقلب ضدها، من أجل زمان بديل. (ج.دولوز)

شهدت الأزمنة الحديثة، ربما منذ بداية خمسينيات القرن المنصرم تداعيات مشروع الحداثة في طغيان العقل وتراجع الروح وحيرة الكائن ومصادرة إمكانياته، وما تبعها من أحداث كحرب فيتنام وثوراة الشباب في فرنسا (1968) والأزمة الاقتصادية في السبعينيات، وتراجع التجارب الاجتماعية في أوروبا، وسقوط النموذج الاشتراكي وتفكك منظومته الثقافية والاجتماعية.. الخ كل ذلك أدى الى انهيار احلام الحداثة في اشكالها السابقة. ولذلك ظهرت تيارات فكرية رفضت الإبستمولوجيا القائمة على يقينية التنبؤ، وتمردت على أسطورة الذات، وعلى نقد المنطق الكلي في السياسة والأخلاق وما يتبعه من أنظمة متسلطة، وعلى معارضة ميتافيزيقية التفكير الفلسفي المتحصنة بوهم المعرفة اليقينية (حافظ، 2018). عندما تخلت الحداثة عن قوتها النقدية، وتحولت أسطورة العقلانية النفعية الى قوة مادية، تنامت قوة الافكار التي شكلت الاتجاه الاهم الذي اختارت النظرية الأنثروبولوجية المعاصرة السير فيه الى النهاية.

ههنا ولدت الاتجاهات التي قررت إعادة قراءة (كانط) من جديد اما بشكل مباشر او غير مباشر من خلال قراءة امتداده الفلسفي في اعمال كل من ويلهلم دلثاي (W.Dilthey) وأدموند هوسرل (E. Husserl) و فريدريك نيتشه (F.Nietzsche) (kant, 2018)، أو مارتن هيدجر (M. Heidegger) لإعادة تشكيل قطاع واسع من جسدها الإبستمولوجي، وغيرت طبقا لذلك الكثير من مواقفها النظرية للوقوف في مواجهة الفلسفة الوضعية او الوظيفية او البيولوجية وصولا الى النموذج التأويلي-التفسيري بناءً على نموذج ديلثاي- فيبر .

لقد عبّر المنعرج الجديد عن نفسه بشكل رسمي في بدايات القرن العشرين متخذاً من التقليد الجديد بناءً لإظهاره ومن قول فتجنشتين (L.Wittgenstein) صياغة فلسفية:

"ليست مهمة الفلسفة قول الحقيقة بل الفصل بين الاقتراحات الميتافيزيقية (العميقة والخالية من المعنى) والمقترحات العلمية المتعلقة بالواقع. وقد شكل كتاب هوسرل(*) (*E. Husserl*) أزمة العلوم الأوروبية والفينومينولوجيا المتعالية (*The Crisis of European Sciences and Transcendental Philosophy*) التعبير الأمثل لهذا التقليد عندما اعتبر ان المشروع الغربي للعلوم يعطينا نظرة لا أنسانية عن الحقيقة.

* - لا شك ان هوسرل لم يتبنى مقولات كانط بلا مراجعة وتحليل وتفكيك ونقد، ومهم جدا ان نذكر هنا ان هوسرل كان قد انتقد كانط في بعض من الجوانب المهمة رغبة في تطويرها، فقد ارتبط نقده للزعة السيكلوجية، بتأكيد ان العام سواء اتخذ شكل ماهيات او مقولات، له وجود موضوعي، والأمر الحاسم عنده هو ان العام يمكن ان يعطي نوع من الحدس، في هذه النقطة بالذات يعارض هوسرل وجهة نظر كانط: ينظر في: هوسرل، ادموند: أزمة العلوم الأوروبية، مصدر سابق، ص 256.

يغيب فيها (عالم الحياة) لذا علينا ان نتحرر من الاوهام، وفي الوقت الذي نحتاج فيه اوربا وهي تواجه خطر الفاشية الى نفس جديد، عليها ان تتساءل عن الانسان والمغزى، وان تبحث عنه في الحياة (هوسرل، 2012).

لقد حدد هوسرل في القسم الاول من كتابه هذا، ماذا تعني بالنسبة له ازمة العلوم الاوربية:

"ان الازمة لا تمس علمية وصلاحيية هذه العلوم، بل دلالتها بالنسبة للحياة، هذه العلوم لا تستطيع أن توجه الانسان، لانها تقصي من ميدان العلم كل الأسئلة التي لها علاقة بالوجود الانساني: اسئلة المغزى، والغاية والحرية والتاريخ" (هوسرل، 2012) وأرجع هوسرل هذه الازمة التي اطاحت بنظره بالعلوم الانسانية وموضوعيتها ومادتها الى سيطرة النزعة الموضوعية واهمالها للذات البشرية بشكل نهائي، وقد تمثّل ليوتار هذه المقولة بشكل دقيق معتبرا أياها شعارا لنظرية ما بعد الحداثة: "اذا كانت المجتمعات ما بعد الحداثة تتميز بتحطم (الحكايات الكبرى) يبقى اذا تكريس الجهد للفكر الاستراتيجي الذي يسجل تبعثر الكليات القديمة للانفتاح على تفاوض غير قار دائما بين الذات والأخر المماثل والمختلف، وإعادة النظر في التفاصيل الصغيرة: ففي عالم كهذا يلمع بسهولة نجم المديح المهمل لفقدان المغزى من كل شيء، والاتجاه الى تأمل أخلاق لا أساس لها (فرانسوا، 2002)

دفعت هذه الرؤى ب (ليوتارد) (Jean-F. Lyotard) في كتابه حالة ما بعد الحداثة (The Postmodern Condition) الى شن هجوم واسع على النظريات الشمولية والسرديات الكبرى (Grand Narrative) ونظريات التنوير العقلي الأخرى وفي مقدمتها السوسولوجيا والانثروبولوجيا التي عدّها أنها شوهدت قدرتنا على رؤية الحقيقة من خلال اكاذيبها عن التحرر والتقدم والعدالة.

من ثمّ توالى أفكار العودة الى كانط، الذي مارس تأثيرا لا ينتهي، ففي سبعينيات القرن العشرين، كتب كارل بوبر^(*) (K. Popper) تحت ضغط هذه التأثيرات المعرفية والشكوك الهائلة في العلم الإنساني قائلاً: "نحن لا نقول الحقيقة ابداء، لا نفعل أكثر من مواجهة الحقيقة بافتراضات خاضعة على الدوام لثقل التمثيل ورهانات السلطة. ليست النظرية العلمية تلك التي تقول حقيقة نهائية، بل التي تقبل على العكس من ذلك ان تكون خاضعة لمبدأ النقص (بوبر، 2006) وشاءت الصدفة ان تكون هذه المقولة هي المنطلق الاساس لفلسفة (رورتي)، ومن ثم تنتقل عدواها الى صديقه (رايبنو) الانثروبولوجي الذي نقل

*-كارل ريموند بوبر: (1902-1994) فيلسوف إنكليزي نمساوي المولد. تخصص في فلسفة العلوم .

كانط بكل ملحقاته النظرية وتعقيدهاته المعرفية الى الانثروبولوجيا الجديدة: "سيشكل كانط اساساً ابستمولوجياً عميقاً لكل نظرية انثروبولوجية قادمة" (Rabinow, 2006)

وهو ما حدث بالفعل، فقد شكل هذا المنعرج الابستمولوجي من الفلسفة الى الانثروبولوجيا مفاجئة علمية هائلة ومعقدة بنفس الوقت، ووجد منظري الانثروبولوجيا الجدد (فوكو، تيرنر، غيرتز، رابينو.. الخ) انفسهم في مواجهة النظام الفلسفي الذي قدمه (كانط) يعانون من صعوبة اعطاء مضمون ما للوعي البشري، خاصة اذا التزموا بتحديد كانط للفلسفة الترانسندتالية، لأنها لا تتساءل مباشرة عن موضوعات الوعي، بل عن الكيفيات التي تعطي بها هذه الموضوعات الوعي، فالمهمة التي كانت لمقابلة على الفلسفة الفينومينولوجية هي تفسير الكيفية التي يتوصل من خلالها الوعي الى الاعتقاد بوجود موضوعات متعالية عليه، اي كيف يتخطى دائرته الداخلية وينسب للموضوعات في العالم وجوداً قائماً بذاته؟ (هوسرل، 2012)

على هذا الاساس فضّل الاحفاد الجدد للكانطية (ليوتار، ودورتي، ورورتي، وفوكو وغيرهم) امر تأسيس نظرية فلسفية تتمحور على وصف الوعي أو ما يطلق عليه على وفق نظامه الفلسفي: Character [a Man's] Way of Thinking as الانشطة الادراكية الرمزية للأنسان أو الطرق التي يسلكها الانسان للتفكير (Roubt, 2006)، وصفاً من شأنه ان يقود الى الانخراط في المنهج الجديد، ويات عليهم من الان فصاعداً ان يتكيفوا مع: نموذج أدراكي و نسبي للحقيقة: ليست هناك اية نظرية صحيحة تماماً، وما كل شيء في النهاية سوى تأويل...! هذا النموذج النسبي للحقيقة كان قد أستوحى من النظام المعرفي الكانطي، كان قد أجتهد كل من ديلثاي ونيثشه في اعادة صياغتها، لكي تنتقل فيما بعد من خلال المراجعات والمناقشات التي واطب كل من (غيرتز وتيرنر) في الوصول بها الى النظرية التأويلية في الانثروبولوجيا الاميركية: " ليست هناك اية حقيقة نهائية لدينا، وكل ما نقدمه لا يعدو ان يكون في النهاية: محض تأويلات" (غيرتز، 2009).

الان وقد انتهى القرن العشرين بإمكاننا العودة الى الورا قليلاً وحصر التيارات الكبرى التي شكلت القواعد الابستمولوجية للعلوم الانسانية في الحقبة الجديدة ربما باستثناء فلسفة العلوم هذه

التيارات جميعها إعادة قراءة كانط واتخذت منه علامات كبيرة لطريقها الفلسفي: الفينومينولوجيا^(*)، الفلسفة التحليلية^(†)، فلسفة العلوم^(‡) واخيرا التفكيكية^(§)..

الامر لا يتعلق هنا سوى بمبادئ عامة هي في تصورنا (الأساس) الذي بات مرتكزاً للكثير من النظريات الحديثة للأنثروبولوجيا من اجل الوصول الى فهم الانسان، تنفيذاً لوصية كانط ومن بعده (أدموند هوسرل) او بلورة تصورات خاصة به وسبل قراءتها، فلقد كشفت لنا اركيولوجيا فوكو ان الخطاب المعرفي الذي تستند اليه العلوم الانسانية لم يعد صالحاً لفهم الانسان، لقد استبطن هذا

*- رفضت المقاربة الفينومينولوجية التقسيم الى فاعل وهدف، واهتمت بالنويا (كما نقول بالعامية)، بالدلالات التي نعطيها الاشياء. ان الظواهر التي نراها او نشعر بها او نتأملها، ليست ظواهر موضوعية خالصة، ولا ذاتية خالصة انما هذه الظواهر (كما يقول هوسرل) موجودة في العلاقات التي يربطها الانسان مع العالم. وقد شكلت هذه المقاربة في النهاية الاسس النهائية التي قامت عليها انظمة معرفية جديرة بالقراءة والاهتمام وفعالة الى اليوم في اوربا نذكر على سبيل المثال: افكار مارتن هيدجر، ه. غادمير، م. ميرلوبونتي، ج.ب. سارتر، ايمانويل لوفيناس التي تحرك هذه الافكار هي نقد الميتافيزيقيا، ويقوم العلم على البرهنة على الحوادث وصرامة المقولات، واذا كان للفلسفة دور تلعبه فهو دور حراسة الفكر البشري، وقد شكات هذه الرؤى المنعرج اللغوي الذي تمثل في اعمال: جون سيرل ، وج. رايل. الذين سنتطرق اليهم في المباحث القادمة ..

*- فلسفة العلوم: تطورت في القرن العشرين واصبحت احد اهم الحقول الخصبة للفلسفة المعاصرة، تميز مشروعها بمحاولات فهم الكيفية التي تتشكل العلوم بها، وما هي مفترضاها وما اطرها الذهنية وتمثلت بشكل رئيس في افكار كل من: كارل بوبر، توماس كوهن، وغاستون باشلار ..

1- الفلسفة التحليلية التي لاقت تطوراً ملحوظاً في نهاية القرن العشرين في اوربا واميركا في اعمال رودولف كارناب، ولودفيج فيتجينشين، والروح التي تحرك هذه الافكار هي نقد الميتافيزيقيا، ويقوم العلم على البرهنة على الحوادث وصرامة المقولات، واذا كان للفلسفة دور تلعبه فهو دور حراسة الفكر البشري، وقد شكلت هذه الرؤى المنعرج اللغوي الذي تمثل في اعمال: جون سيرل ، وجيلبرت رايل.

‡- فلسفة العلوم: تطورت في القرن العشرين واصبحت احد اهم الحقول الخصبة للفلسفة المعاصرة ، مشروعها كان: فهم كيف تتشكل العلوم ، وما هي مفترضاها ، وما اطرها الذهنية وتمثلت بشكل رئيس في افكار كل من: كارل بوبر ، توماس كوهن ، وغاستون باشلار

§- التفكيكية: هاجم التفكيكيون عقل الانوار والفكر الغربي، يوضح مصطلح التفكيكية الذي وضعه هيدجر الوظيفة الجديدة للفكر الفلسفي وهي ليست اقامة نظم جديدة ن وانما تفكيك خطابات تقدم لنا باعتبارها خطابات الحقيقية والعقل ، ويشار الى جاك دريدا وميشيل فوكو كأبرز مفكرين تفكيكيين. ن بول ريكور ، جون توسانتي .. وسنكتشف فيما بعد ان هذه الافكار بدورها صاغت بشكل نهائي النظرية الانثروبولوجية الحديثة سواء في اعمال الفرد شوتز ، او كيلفورد غيرتز وبيتر بيرجر ، وحتى راينو ، وكيلفورد ماركوس

الخطاب الميتافيزيقيا التقليدية التي هزمتها عدمية نيتشه ولم يغير عصر الانوار من انظمتها المعرفية شيئا. انها الانثروبولوجيا الجديدة التي بدأت تتحرك بموجب نظام معرفي ضمني كان قد استكمل قراءة كل الطروحات الحدائية، حتى بدا جليا ان مقياس معرفة الظاهرة ليست هي الظاهرة نفسها، ولا ظهورها المحض، وانما هذا الظهور مؤولا بطريقة مختلفة تناسب وذلك الخطاب الضمني الكامن وراء فعالية العقلنة الموضوعية، فيما تبلور في الجهة الاخرى مشروع التأويل بحثا عن المغزى الذي اراده دلثاي (W.Dilthey) وطوره من بعده هانز غادامير (H.G. Gadamer).

ثالثاً: الخروج على التنوير أو المباديء الكانطية لانثروبولوجيا القرن العشرين

دَعَوْنَا نناقش الان كيفية تَشَكُّل هذا المنعرج الجديد وصولا الى المجال الانثروبولوجي ولننطلق بداية من الانقلاب الذي حصل مع نهاية القرن الماضي في التقييم العام للعلوم، انه لا يتعلق بعلميتها (رأى هوسرل) بل بالدلالة التي كان العلم يتخذها او يمكن ان يتخذها بالنسبة للوجود البشري. ان رؤية الانسان الحديث للعالم تحددت كلها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر من قبل العلوم الوضعية وحدها، وانبرت بالازدهار الناجم عن هذه العلوم، مما ادى الى الاعراض بلامبالاة عن الاسئلة الحاسمة بالنسبة لكل بشرية حقة، وكما عبر عن ذلك هوسرل في "ان علوماً لا تهتم الا بالوقائع تصنع بشرا لا يعرفون الا الوقائع، كان انقلاب التقويم العمومي للعلوم امرا لا مفر منه لاسيما بعد الحرب، وتحول هذا التقويم اخيرا عند الجيل الجديد- كما نعرف- الى شعور عدائي ازاء العلم" (هوسرل، 2012)

لكن لنترك الان الاحداث الواقعية(*) التي غيرت الكثير من القناعات والتصورات ازاء العالم والانسان من مرحلتها الرومانتيكية الى سيادة الشك والريبة والتشاؤم، ونناقش بشيء من التفصيل ما حدث على المستوى الابستمولوجي، فهناك الكثير من المبررات التي صَعَّدَتْ من اهمية العودة الى كانط ومراجعة حالة العقل البشري في نفس الوقت وعلى وفق الاتي:

* - بعد حربين عالميتين اكتشف العالم حجم الخسائر البشرية التي تجاوزت الثلاثين مليون انسان، وما تلاهما من أحداث، تقسيم العالم، سقوط الرايخ الالمانى، ومتعلقات انهيار الانظمة الاجتماعية والثقافية والسياسية في اوربا، وتقسيم العالم على اساس الريح والخسارة مرة اخرى في الحرب العالمية الثانية، مروراً بالحرب الباردة، انتهاء بانتفاضات الشباب أو الطلبة في اوربا التي حطمت جدار الكثير الايديولوجيات الكبرى، والتفسيرات الشمولية التي كانت يومها ملاذاً آمناً للمفكرين والمثقفين ومستقراً للناس العاديين وتحديداً للمؤمنين، وما راقبها من انتقالات وتحولات جدلية وعميقة على مستوى التعبيرات العقلية للذهنية البشرية في مواجهة فوضى العالم.

اولاً: طبيعة المشروع الكانطي (Kantian project):

ان الاغراءات الواسعة التي نتجت عن إنقاذ العقل من الهيمنة الأرسطية^(*) على يد كانط، تُعد بالفعل نقطة التحول الطارئ على العصر الحديث فالمراجعة التي قدمها كانط في قراءته لمفهوم العقل عند ديكارت^(†) فتحت الطريق واسعا امام تحول اخر في طبيعة نظرتنا إلى الكائن (Being) وكيونته المنسية، وقلبت (رأساً على عقب) اتجاهات النظرة الوظيفية للمعرفة من المطلق الى المحدود.

ثانياً: سيادة مقولة الحتمية (Determinism):

هذه المقولة الميكانيكية الشاملة التي فرضتها فيزياء نيوتن على العلم الكلاسيكي وحكمتها بقضبان حديدية هي عمومية القوانين الطبيعية وثباتها واطرادها، فلا تخلف ولا مصادفة ولا جواز ولا مكان، لان كل شيء في الكون ضروري ذا علاقات ثابتة، وكل ظاهرة من ظواهره مقيدة بشروط تلزم حدوثها اضطراراً فهي خاضعة لقوانين تجعلها نتيجة ضرورية لما قبلها ومقدمة شرطية لما بعدها، لكن مع فشل مراحل التاريخ التي قدمها فيكو (G.V.Vico) (هوركهايمر، 2006) وتراجع مخططات كوندرسيه (R. Condorcet) التاريخي لتقدم العقل البشري (الخولي، 2000) ومع الفراغات الكثيرة والكبيرة التي تركها النموذج التطوري في اعمال سبنسر في الأنثروبولوجيا البريطانية، واستسلام الفكرة الوظيفية التي عالج بها دورايم اخطاء

* - تجدر الملاحظة الى ان كتاب فرانسيس بيكون (الاورجانون الجديد) هو بداية الاشارة الى ان اورجانون ارسطو قد اصبح اداة قديمة بالية عفا عليها الدهر، والكتاب يقدم الاداة او الالة الجديدة المناسبة لاحتياجات العصر الجديد وهي المنهج التجريبي، فضلا عن ذلك فان لوك هو الاخر كان قد هاجم القياس الارسطي واشبعه تهكما وسخرية ورفض بقطع أي ادعاء بوجود افكار مفطورة في العقل البشري تركز عليها المذاهب العقلية المقابلة للتجربة .. من هنا نضم ان فرانسيس بيكون وديكارت كانا قد هاجما هيمنة المنطق الارسطي، وحتى الاستقراء الارسطي، وبالمناسبة فان كلاهما (ديكارت وبيكون) قد تعرضا فيما بعد الى نقد عنيف من قبل كانط فقد اعتبر الاخير ان العقل عند بيكون هو مجرد اداة مماثلة وتجريد وتصنيف لمعطيات الحواس، وبالتالي فان تحرير العقل من الهيمنة الارسطية تعود الى كانط بشكل نهائي.

† - ومع ان هذا الانتقال من كونية العقل إلى ذاتيته تجسده الفلسفة الديكارتية أفضل تجسيد، بل إن هذه الذاتية هي، كما يقول هوسرل، الاكتشاف الديكارتية الأهم، وإن كان هذا الاكتشاف قد بقي، حسب هوسرل، بدون استثمار عند ديكارت، وهو النقد نفسه لكن من منظور مغاير وجهه هيجل إلى الديكارتية فيما بعد: إن إجابة ديكارت (عند هيجل) هي إجابة صحيحة لكنها ناقصة، وذلك لأنه عندما انطلق من "الأنأ أفكر" فهو لم يركز انتباهه إلا على فعل التفكير " أفكر" غافلا بشكل تام عن دراسة "الأنأ والنظر إليه ككيونته جوهرية". وإذا طلبنا المفهوم الديكارتية للعقل. للمزيد ينظر في: بو عزة ، د. الطيب: المصدر السابق نفسه ، ص14.

استاذة ومثله الأعلى (كومت)، وارتباك التفسيرات الانثروبولوجية التي قدمها ليفي برون (L.Bruhl) في فرنسا، في كتابه (العقلية البدائية) هي الاخرى كانت محط شكوك كبيرة، انتهاء بتجربيات (وليم فونت) على مستوى السيكولوجيا التي فقدت اليوم الكثير من بريقها، وتحولت الى تاريخ مجيد سرعان ما افل نجمه.

فشل الحلم الخيالي الذي نازع هؤلاء العلماء في الانثروبولوجيا من أجل الظفر بمنزلة تساوي منزلة الفيزياء، وفشل كومت في تعريفه الانسان بوصفه:

"ليس كائننا فريدا ولا يحتاج الى معالجة فريدة، بل هو قاطن في مملكتي الحيوان والنبات يخضع مثلهما لقوانين عامة حين نكتشفها ستقودنا الى الهناء والتجانس" (كومت، 1954) ان ذلك يجسد الفكرة التي قدمها كومت يجب علينا التخلي عن طموحنا الميتافيزيقي في البحث عن جوهر الأشياء، وان نكتفي بدراسة الظواهر بطريقة عينية، وبذلك تحل فيزياء الظواهر مكان الميتافيزيقيا القديمة التي كانت تدعي دراسة (جوهر الاشياء)، عند ذلك سيشعر بالهناء، ولكنه (وبحسب ما سنرى) لم يشعر بالهناء ابدأ فقد تعرض الى هجوم عنيف من جهات عدة الاولى الماركسية والثانية الظاهراتية^(*) والثالثة الكانطية الجديدة^(†)

* - الظاهراتية هي منظور فكري استهدف توليد المعرفة المتصلة بالطريقة التي يعي الناس بها الحياة والعالم من حولهم ، وقد ارجعت (شارلين بير) الاصول الاولى للظاهراتية في القرن التاسع عشر بوصفها النظرية التي ظهرت في جانب كبير منها نفاذاً للوضعية. فقد كان المفكرون ينتقدون نموذج العلوم الطبيعية لانها تسلم بوجود حقيقة موضوعية مستقلة عن الوعي الفردي. وقد وجه هوسرل اعتراضاً عنيفاً على ذلك ، معتبراً ان الوعي الانساني هو الطريق الوحيد الذي يوصل الى فهم الحقيقية الاجتماعية، وخاصة فيما يتصل بالطريقة التي يفكر بها المرء، في الخبرة التي يعايشها، او بتعبير اخر "كيف يشعر المرء بوعيه، وفي رأي هوسرل ان الوعي يكون (مُعتمداً) على الدوام وهذا يكون موجهاً الى ظاهرة ما. وبالتالي يمكننا فهم الطريقة التي يعمل بها الوعي من ادراك الطريقة التي يخلق بها الافراد فهمهم للحياة الاجتماعية.

†- الكانطية الجديدة: مع بداية العام 1875 أخذت حركة (العودة إلى كانط) في طريقها الصاعد، ومن ثم تحولت إلى قوة في الجامعات الألمانية. وقد هيمنت هذه النزعة الفلسفية خلال العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر وصولاً الى منتصف القرن العشرين، وبالتحديد حتى العام 1950 وهو تاريخ وفاة (نيكولاي هرمان) آخر فيلسوف كانطي جديد ، لكن هذه العودة إلى كانط: "لم تتطلع أبداً إلى شئ أكثر من العودة إلى روح كانط، ولم تسعى على الإطلاق إلى إحياء نظامه الفلسفي برتمه" وقد لاحظ مؤرخو الفلسفة إن هناك مدرستين كانطيتين جديدتين كبيرتين فرضتا هيمنتها على تاريخ الكانطية الجديدة: الاولى هي مدرسة ماربوك للكانطية الجديدة - الثانية: مدرسة بادين أو هيدلبيرك للكانطية الجديدة (نسبة إلى ولاية بادين وهيدلبيرك نسبة إلى الجامعة) قد أكدت على

فضلا عن هجوم رواد الهرمينوطيقيا التي عدت مناوئة للنظرية الوضعية والحتمية التي تميزت بها، ومن ثم اعتراضات ديلثاي وماكس فيبر و فرانس بواس.

في النتيجة النهائية فان (العقيدة الحتمية) كانت قد تعرضت الى تشظٍ كبير، خاصة بعد ظهور فكرة النسبية لدى اينشتاين، الذي قلب كل شيء رأسا على عقب، فقد رفع شارة النسبية، واستبدل الهندسة الاقليدية بهندسة ريمان (E.Riemann) اما على مستوى السيكلوجيا فقد انطلقت افكار فرويد (S.Freud) وادلر (A. Adler) ويونغ (C. G. Jung) عن الوعي الجمعي واللاوعي، والماضي الاجمالي للبشرية والانا لتثير اشكاليات هائلة في العلم الحديث، عارض ليوتارد بأثرها هذه الحتمية ووجه لها نقدا رهيبا: من الان فصاعدا علينا أن نقبل فكرة ان التاريخ قد لا يملك غرضا، بمعنى انه سيرورة غير تطويرية او تقدمية نحو هدف نهائي، بدلا من ذلك هو مجموعة من الاحداث الطارئة التي غالبا ما تحدث في الصدفة مع العديد من النتائج غير المستبقة. واحدى نتائج هذا الادعاء الجديد هو ان المكائنة ذات الامتياز لإولئك الفلاسفة كان قد تم تقويضها نهائيا (فارجينس، 2009^{*})، ومع سيادة النموذج النسبي في العلوم الطبيعية شهدت العلوم الانسانية (بموازاة ذلك) العودة الى كانط ومن ثم إعادة التمرکز الاستيعمي من جديد في النظرية الانثروبولوجية، فمن خلال الاعمال الكبيرة التي قدمها فرانس بواس (ذو المزاج الفكري الالماني) دخلت الكانطية الجديدة الى اميركا للمرة الاولى، والتأثيرات التي لحقتها على مستوى النظرية السوسولوجية كما سنرى ذلك في اعمال كل جورج ميد (G.H.Mead) والفرد شوتز (A. Schütz) واخيرا بيتر بيرجر (P.L.Berger)..

ثالثا: الحاجة الى تطوير المنهج الاستقرائي:

لقد كان المنهج العلمي الذي صاحب الفلسفة التجريبية هو الاستقراء (Induction) وهو المقابل (الاهم) للمنهج الاستنباط (deduction). فقد باتت الحاجة الى اكتشاف منهج جديد او رؤية جديدة يمكنها ان تسهم في تطور العلوم الانسانية وهو ما تقدم على يد كانط، انه (الفهم) الذي تطور فيما بعد على يد

أسئلة القيم أو الأكسيولوجيا. ومثل هذه المدرسة عدد من مفكري الكانطية الجديدة من أمثال ويلهلم وندلباند (1848 – 1915) و هنريخ ريكارت (1863 – 1936) ، و أميل لاسك (1875 – 1915). وندلباند أعتقد إن مهمة الفلسفة الأولى هي تعليم القيم الكونية السليمة ، والتي تتمثل بثلاثية القيم : الصدق في التفكير ، والخيرية في الإرادة والفعل ، والجمال في المشاعر. .

* - فارجينس، جيمس: النظرية السوسولوجية المعاصرة، ترجمة د. لاهاي عبد الحسين (غ.م) ص590.

الكانطيين الجدد ولاسيما ديلثاي الذي تبنى ايصال هذا المنهج الى العلوم الانثروبولوجية والسوسيولوجية عن طريق اعمال ماكس فيبر التي سرعان ما تلقفها بيتر بيرجر وغيرته ورفاقه..

رابعاً: اهمال الذات، وتجاهل اسئلة العقل

فضلا عن تشوهات كبيرة لحقت بمفهوم العقل وعلاقته مع العالم الخارجي، صاحبه تغييب مطلق لقضية بحث الوعي او مناقشته الا في تعبيرات مادية ميكانيكية في جميع المباحث الفلسفية والعلمية التي كانت سائدة حتى بداية القرن العشرين. وقد تصدى كل من فوكو وديدا لهذه القضية فلسفياً، فيما قدم على -مستوى الانثروبولوجيا- كل من غيرتز و راينو على الاخص وماركوس وكليفورد اعمالاً كبيرةً ومهمةً اعادت الى العقل هيئته وامكاناته في معرفة العالم.

هكذا تشكل هذا المنعرج بمخاضات عسيرة حررت عائدية التفكير في البنى العقلية (شتراس، 1984) من ارتباطها الابستيمولوجية الى المجال الانثروبولوجي، تحول معها العقل البشري (المنتج للتفسيرات الوجودية ولنماذج المعنى بمختلف تشكلاتها): من كونه تجريداً متعالياً خالصاً الى دلالة للمعنى (العقل العملي) عند كانط، وموجهاً ثقافياً لوجود الكائن البشري (Rabinow, 2006) وعلى اثر هذا الانتقال باتت دراسة الانظمة الذهنية والمغزى من القضايا المركزية للانثروبولوجيا المعاصرة. وشكل هذا الانتقال أثاراً كبيرة في طرائق تفسير العالم، لقد تكشف الولوج الى العقل عن سؤال المغزى، وطبيعة التناقض والتعقيد الكامن في طبيعة السؤال! والحق ان التناقض قائم في الفرضية الثقافية التي تخبرنا ان (العالم) او (الحياة الاجتماعية) هي (في التحليل الاخير) من خلق الانسان نفسه، وانهما نتاج منظومة الرموز والعلاقات التي يقيمها الانسان في حياته مع الاخرين⁽⁹⁾

* - أن الحياة التي يجب ان يكيف الانسان نفسه لها هي في الكلمة الاخيرة من خلقه ، مثلما ان حضارة ما أو ثقافة ما هي في النهاية مصوغ انساني. وهو بالاصل تأكيداً لمقولة (فيكو): (من المؤكد ان العالم الاجتماعي من صنع الانسان) هذه الفرضية كانت قد حملت الانثروبولوجيون بعد جيلين من البحث والاستقصاء، المفكرين على مواجهة هذه الحقيقة. كما أن الانثروبولوجيين لم يكونوا راغبين في ان يجعلوا من الحضارة عاملاً مطلقاً ومستبدأً كما صور بعض الفلاسفة القدر. فالمعلومات الانثروبولوجية لا تسمح ان تخلى مسؤولية الانسان ليحل محلها حظه وقدره. ولقد بدأ الانسان الان يتبين أن حضارته وتنظيمه الاجتماعي ليسا اساليب سماوية غير قابلة للتغيير ، ولكنها من خلقه هو ويمكن لذلك تبديلها .. ينظر في : كلاكوبن، كلايد: الانسان في المرأة: علاقة الانثروبولوجي بالحياة المعاصرة، ترجمة شاكر مصطفى سليم، (بغداد- منشورات المكتبة الاهلية، 1964)، ص 69.

لقد سيطرت الرؤى الجديدة على اغلب الاتجاهات الانثروبولوجية المعاصرة، بحثا عن فهم جديد، سواء التي تمثلت بافكار شتراوس (C.Levi-Strauss) حول المعنى او البنى الرمزية للاسطورة وملاحظات غريتر الثاقبة حول الانساق الثقافية للمعنى (كاظم، 2015) فضلا عن تلك المحاولات التي تمثلت في شروحات بيتر بيرجر (P. Berger) حول طبيعة الموقف الانساني من العالم الغارق في الفوضى، كذلك رصد مارك اوجيه (M. Augé) للتوتر بين المعنى والحرية في الوجود الانساني. هذه الاسهامات الكبيرة لا يمكن الاستغناء عنها بوصفها نقطة بداية رسمية لولادة انثروبولوجية فلسفية، يهيمها ان تنشغل في فهم حيرة الانسان ومشكلاته في العالم الحديث، ومن المهم ان نشير الى انها جميعاً اولت ماكس فيبر (M. Weber) وملاحظاته الثمينة عن (مشكلة المغزى) وارتباطها الشديد بمنهجية الفهم لديه، التي عثر عليها في اعمال ديلثاي، اهتماما كبيرا واتخذت من مقولته الشهيرة (الانسان كائن ينشد المغزى) شعاعا اساسيا لكل أعمالها وبداية في طريق حدائة العلم الانساني.

رابعاً: الانثروبولوجيا الفلسفية المعاصرة .. المخاضات التكوينية

لم يكن سهلاً على الانثروبولوجيا الفلسفية أن تُشكل نفسها وتستجمع قواها من جديد، أو أن تنجح في سعيها لتشكيل بنيتها الذاتية في عالم الما-بعد حدائة، مالم تعيد قراءة الماضي الفلسفي في أزمانه وانتصاراته قراءةً مختلفةً، مساهمةً بذلك في صناعة مستقبل معرفة أكثر انفتاحاً على العالم. هذا النوع من التشكيل الذاتي تطلب من الانثروبولوجيا اجتهادا نظريا على مستوى المفاهيم ودفع بها الى تقديم ما بوسعها لإعادة فهم التسلسل المنطقي لتحول الافكار والنظريات الفلسفية لما يمكنها من انتاج فهم أفضل لتجليات الواقع (Bennett, 2016)، حيث لا وجود لكليات من اي نوع، مادية او روحية، ولا وجود لمبدأ واحد نهائي يمنح العالم التماسك والوحدة، ومن ثم لا وجود لثنائيات على نمط (ثنائية الروح والجسد، الخير والشر) فالمشروع الجديد للانثروبولوجيا يتضمن محاولة للقضاء على خرافة الميتافيزيقيا، وعلى اوهام الفلسفة الانسانية بشكل كامل، عن طريق القضاء على خرافة الحقيقة الكلية، التي اكتشف انها كامنة (غافية) في الحقائق الصغيرة، والكل كامن في الاجزاء التي لا يربطها رابط. والعالم في حالة حركة دائمة وتغير دائم، ولكنه ليس بالضرورة تطورا او تغيرا ذا معنى وقصد.

هذا هو جوهر فكرة الانثروبولوجيا الفلسفية التي تشكلت على اساس من فلسفة كانط، تلك الفكرة التي بات معها سؤال ما الحقيقة ؟ سؤالاً ميتافيزيقياً بامتياز، بل هو التمثيل الحدائي للسؤال – ما الاله ؟ وحقيقة الامر انه لا يوجد شيء اسمه الحقيقة، وبالاستناد الى المقولة الكانطية (النومينون)

فان حقيقة الشيء في ذاته^(*) (thing in itself) لنستنتج منها حقيقة الحقيقة هي الاخرى كامنة في ذاتها؛ ان حقيقة الانسان في ذاته، وعلى الانثروبولوجيا ان تتخذ من هذه المقولة الاخيرة منطلقا لتأسيس ذاتها على تقاليد فلسفية وعريقة وعميقة..

ولم تتمكن الانثروبولوجيا الفلسفية التي تشكلت تيماتها الأساسية بُعيد ثمانينيات القرن العشرين من أفكار: فوكو (M. Foucault) و بورديو (P. Bourdieu) ودولوز (G. Deleuze) ، وغيرتز (C. Geertz) وبول رابينو (p. Rabinow). و كاربانزانو (V. Crapanzano)، وكليفورد (James Clifford) وك دواير (K. Dwyer) من انتاج أفكارها وتأويلاتها الثقافية على اساس من تجارب بحث مكثفة حول التفاصيل الصغيرة للحياة اليومية والكيفية التي تتوجه بها افكار الناس من خلالها، وصولا الى تفسيرات كبرى للعالم لولا ان تغيرا كبيرا كان قد طرأ على القاعدة الابستمولوجية التي ارتكزت عليها النظرية الفلسفية للأنثروبولوجيا، كما لم يكن لها مناقشة التظاهرات الإشكالية التي اطلقها فوكو^(†) حول سلطة الخطاب والأشكال الاستطردادية التي دائما ما تكون مصاغة في سياقها التاريخي ومُنْتَجَة على اساس من فعاليات خفية (غير معلنة) للسلطة والقوة (فوكو، 2005). لم يكن لها ان تفعل ذلك، لولا قدرة تلك البنى الابستمولوجية على مواجهة المغايرة وتفسير ما لم يكن قابلا للتفسير بأدواتها القديمة التي اصبحت تحت مطرقة النقد للموضوعية العلمية وتراتبية المعارف التي تطورت على اساس نسبية ثقافية كانت حاضرة في اغلب اعمال ما بعد الحداثة.

* - نوميونون: باللاتينية (noumenon): هو مصطلح فلسفي ويقصد به ويرادفه في الاستخدام الفلسفي الشيء في ذاته) بالإنكليزية *thing in itself*: ولم يكن مفهوم النوميونون حتى جاء به الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط ثم أصبح مصطلح النوميونون مرتبطا بالفلسفة الكانتية. والمقصود بالشيء في ذاته هو الحقيقة الأساسية للشيء التي تكمن وراء الظواهر

[†] - ينتقد فوكو النظرة التقليدية للمجتمع والتاريخ التي ترى فهما سيرا خطيا وتراكما للأحداث، ويزعم على العكس من ذلك " علينا ان نخلص تاريخنا الاجتماعي والثقافي من الصورة التي ارتضاها لنفسه زمنا طويلا ، وكان يجد فيها تبريره الانثروبولوجي، صورة ذاكرة عتيقة جماعية تستعين بالوثائق المادية لكي تستعيد الذكريات في حرارتها واستثمارا لمادة وثائقية وتقنيات واشياء وعادات، تقدم دوما في كل مكان، وعند كل مجتمع اشكالا تلقائية او منظمة من البقاء. اما التاريخ فهو الكيفية من الكيفيات التي يدبر بها مجتمع ما مادة وثائقية لا ينفصل عنها. ان القوى التي تتصارع في التاريخ لا تخضع لا الى وجهة ولا الى ميكانيزم، وانما تخضع لصدفة الصراع. وتعني هذه الأطروحة ان الأسس الثقافية لمجتمع ما ليست جمعا ابديا للمعارف ولطرق التفكير انما توجد هناك قطائع جذرية في تاريخ الافكار.

فقد انطلق غيرتز في دراسته للثقافة الباليانية في اندونيسيا من فكرة ان كل ثقافة هي تفسير للعالم، ولا يزيد الملاحظ الانثروبولوجي عن محاولة ادراك الاسلوب الخاص بكل ثقافة، وفي مرحلة ثانية اعتبر ان خطاب الانثروبولوجي نفسه تفسيراً يتضمنه الاسلوب الخاص بالكاتب او الخاص بجماعته المرجعية، اما كيلفورد فقد طور الجانب التأملي من هذا المشروع بتبين كيف يكتشف تحليل المؤلفات الاكلاسيكية في الانثولوجيا استراتيجيات الثقافات المتأملة في الاستحواذ على السلطة بالنص، كما حلل ايضا العلاقات الموجودة بين الفن والانثولوجيا مقللاً الى مقدار ضئيل علمية المشروع الانثروبولوجي..!

أتت هذه النظرة التأملية الشاملة للتراث والانسان الملتف به في وقت شهدت فيه العلاقة تحولا كبيرا فيه انعكس أثره على العلاقة بين الانثروبولوجيين والشعوب التي دأبو على دراستها، وبغض النظر عن درجة استيعاب هذه النظرية للانفتاحات المعرفية التي وفرتها التطورات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، والتي عبرت عن نفسها في نظرية فلسفية على المستوى الانثروبولوجي، فإن تغير قواعدها المعرفية ساهم بهذا الشكل او ذاك في زعزعة الكثير من القناعات الراسخة في اتجاهات الانثروبولوجيا الكلاسيكية التي قزمت الانسان وأسطرة المجتمع، وبالغت كثيرا في تشرح العلاقة الوظيفية بينهما، اختزلت الفعل الانساني بشكل مدمر، فضلا عن انها لقت نفسها بغطاء بنائي رث ونظرة (استاتيكية) متحجرة أعجزتها عن استيعاب التحولات الاجتماعية ل-مجتمع ما - دَخَلَ عنوة انظمة للحياة جديدة. كذلك التي شهدت مجتمعاتنا العربية بعد الثورات والانقلابات والتدخلات الفاضحة للدول الكبرى في شؤون الدول الصغرى..

ان المنعرج الابستمولوجي الذي تستند اليه تنظيرات الانثروبولوجيا الفلسفية اليوم، يظل يمتلك القدرة على صياغة تحولات هذا العلم وشكله المستقبلي، وكان ان اسهم بالفعل في تجديد وجه العلم الانثروبولوجي وصياغة جيل جديد من علماء الانثروبولوجيا الاكثر انفتاحا ومرونة في نظرتهم وفهمهم للانسان والمجتمع المعاصرين، وتحقيق فهم ناجع للاجراءات والتمثيلات الخاصة بالعلم من خلال انشغالهم بمعرفة الكيفية التي يعمل بها الرمز والدلالة الذهنية، وتأكيدهم على التساؤل عن اصول العالم، وطبيعة العقل؛ انها لطريقة جديدة في التفكير (Paul R., 2007). وجدت ضالتهما في نقد العقل الخالص (Critique of Pure Reason) الذي قدمه كانط، من ثم جرى التأكيد فيه على قطاع ابستيمي هو الاكثر اهمية فيما يخص تأثيره على نظرية الانثروبولوجيا الفلسفية: ان المعنى الصحيح في المبدأ الكانطي هو الذي يقول بأننا (نصنع) عالمنا، وان الطبيعة المنظمة و المنهجية الخاضعة للقوانين هي في الحقيقة ظل لمنهجنا الاجرائي الادراكي. ان ثورة كانط الكوبرنيكية تتألف من القول بعدم وجود طريقة لاثبات ان العالم يجب ان يكون على هذا النحو (Jacobs. B., 2003) لان هذه العبارة تتضمن فرض نوع من

الايدولوجيا المسيطرة، وعبارة (يجب ان يكون على هذا النحو) هي الاخرى، بعد الفحص الدقيق هي نوع اخر من خطابات القوة التي تضيف على هذه الايدولوجيا صفة المعيارية بقصد الحفاظ على شكل من اشكال العالم المسيطر، سواء على المستوى المحلي، او القومي، او العولمي .

ربما باتت فكرتنا عن المنعرج الأبستمولوجي الذي احدثه (كانط) وأثره في تشكل انثروبولوجيا فلسفية اكثر وضوحاً وتمايذا وعمقا، فقد نجحت القاعدة الابستمولوجية الجديدة في إعادة قراءة مشاريع أولئك (الفلاسفة) لتأسيس نظرية معرفة من نوع خاص تدعم حالة العلوم الانسانية بشكل عام، وتساهم في صياغة مطالب النظرية الفلسفية للأنثروبولوجي البعد –الحديثة (Colleyn, 2006) ها هنا بدأت الانثروبولوجيا عملها لتأسيس رؤية مشتركة للعالم من حولنا، والبديهي ان هذه المسؤولية لا يمكن تحقيقها بلا (انثروبولوجيا فلسفية) قادرة على ان تفهم وتمسك بكلتا يديها (حوار المعاني) أو (البنى الرمزية للافراد) أو المقدمات النظرية التي ترى ان الفعل الاجتماعي يهتم اساسا ب(المعنى) خاصة في المجتمعات التي تعبر عن نفسها بشكل دقيق في -رؤى العالم - مثلما تشكل في اذهان الناس الذين يعيشون فيها، فضلا عن ذلك كان علمها ان تقدم فهم جديد لحالة (العلاقة بين الدال والمدلول)⁽⁴⁾ التي اثارته الكثير من الجدل بين فلاسفة الحدائة وما بعدها على مستوى الفلسفة والانثروبولوجيا، ونشطت الانثروبولوجيا بالفعل في تطوير مشروعها حول فهم نسق الرموز المشتركة، وخلق تأويلي للمعنى الذاتي بين الافراد في الوقت ذاته (Rabinow P., 1996).

لقى هذا المنعرج مهام اخرى على عاتق العلم الانثروبولوجي، اذ بات عليه ان يعيد النظر في الكثير من تصوراته الكلاسيكية، ومواجهة حالة تزايد وتعقد المهام المطروحة على الانثروبولوجيا اذ ستظهر (يرى شتراوس) مشكلات جديدة لم يقارنها الادراك حتى الان. ولا بد من بقاء هوة دائمة بين الاجابة التي يستطيع العلم تقديمها والسؤال الجديد الذي تثيره تلك الإجابة. كما ان علينا ان نفهم جيدا حقيقة ان هذا الانثروبولوجي لن يعطينا كل الإجابات أبدا (شتراوس ك، 1995) وليس في وسعنا سوى ان نحاول ببطء شديد زيادة كم ونوع الإجابات التي بمقدورنا إعطاؤها وهذا ما لا نستطيع أداءه بغير الانثروبولوجيا.

* - تعد اشكالية علاقة الدال والمدلول لغوية بامتياز، الا انها اتخذت تصنيفا فلسفيا ايضا، والدال هو الجانب المحسوس من الكلمة (sensible) فهو الصورة الصوتية او مسامها المرئي. اما (المدلول) فهو الجانب المفهوم من المعنى (intelligible)، يمكن اعتبار ان الدال هو الاسم والمدلول هو المسعى ن الذي يشار اليه. مع ملاحظة ان كلمة (دال) لا تشير الى الكلمات وحسب وانما تشير الى النظم الاشارية كلها (علامات المرور- الرموز.. الخ)

خاتمة:

في المنعرج الابستمولوجي الجديد- الذي جاء انطلاقا من القواعد الفلسفية العميقة التي تركها لنا الفيلسوف كانط- يفترض على انثروبولوجي الفلسفة ان يبقوا يقظين ومدركين لحقيقة اساسية وجوهريّة وهي ان وجود الأنسان لا يمكن ان ينفصل عن عملية تساؤله الفلسفي عن العالم والحياة والميتافيزيقيا كما ولا يمكن له ان يهمل طبيعة هذا الوجود القلق بين كل هذه المنطويات، وبناء على هذا المنطلق ما عاد عالم الانثروبولوجيا الفلسفية المعاصر يتردد ولا يجد مانعا من ان يطرح هذه الاشكاليات الوجودية بصورة واضحة وصريحة، بدلا من ان يدع الأنسان المعاصر نهبا لمشاعر القلق والخواء والضياع والعدم. وهي الفرضية التي بدت جلية ودقيقة في أعمال الانثروبولوجيا الفلسفية المعاصرة برمتها، بداية مع اعمال شتراوس وبالتحديد مع تحفته الانثروبولوجية (مدارات حزينة) وانتهاء بأعمال رابينو، فقد تم الانشغال بالعقل واعطيت مساحة كبيرة لمحاولات فهم الوعي والفعل والسلوك الانسانيين من منظور كانطي عميق مما ساهم من اعلاء مرتبة الانثروبولوجيا الفلسفية بين فروع الانثروبولوجيا الاخرى وصعودها في مرتبة العلوم الانسانية برمتها، وما ساهم ايضا في اغناء وتطوير الانثروبولوجيا الفلسفية برمتها.

قائمة المصادر والمراجع

- الحدائث، ك. و. (2018, 5 23). كانط وما بعد الحدائث. Récupéré sur <http://www.startimes.com>.
- الخولي، م. ط. (2000). فلسفة العلم في القرن العشرين (الاصول - الحصاد - الافاق المستقبلية). الكريت: عالم المعرفة.
- الطيب. (2013). العقل والذاتية في فلسفة الحدائث من ديكرت إلى كانط. Récupéré sur موقع مؤمنون بلا حدود.
- بوبر. (2006). منطق البحث العلمي. بيروت- المنظمة العربية للترجمة: المنظمة العربية للترجمة.
- حافظ، ذ. . (2018, 4 22). خطاب ما بعد الحدائث انحلال الحتمي واغراء المختلف. Consulté le 2018, sur <https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=1867>.

- دورتيه ، جان فرانسوا. (2002). *فلسفات عصرنا: تياراتها مناهيها ، اعلامها وقضاياها* (المجلد الاولي). الجزائر: منشورات الاختلاف.
- شتراوس، ك. ل. (1984). *مدارات حزينة*. بيروت: التنوير.
- شتراوس، ك. ل. (1995). *الاسطورة والمعنى*. سوريا: دار الحوار.
- غيرتز، ك. (2009). *تأويل الثقافات ومقالات اخرى (بيروت – المنظمة العربية للترجمة) 2009*، ص213. بيروت: المنظمة العربية للترجمة.
- فارجينس، ج. . (2009). *النظرية السوسيولوجية المعاصرة*. بغداد.
- فوكو، م. . (2005). *حضريات المعرفة*. المغرب: المركز الثقافي العربي.
- كاظم، ع. ج. (2015). *أنظمة المعنى: في الاثروبولوجيا المعاصرة ايضا حات منهجية بشأن الاسس الثقافية للتميز*. بغداد: مجلة كلية الاداب.
- كانط. (9، 6، 2015). *ما التنوير*. Récupéré sur <https://hekmah.org>.
- كانط، ا. (1964). *نقد العقل الخالص*. بيروت: دار اليقظة العربية.
- كومت، أ. . (1954). *دروس في الفلسفة الوضعية*. القاهرة: المعرفة.
- هارفي، د. . (2005). *حالة ما بعد الحداثة: بحث في اصول التغير الثقافي* Dans *الآلة ما بعد الحداثة: بحث في اصول التغير الثقافي* (p.37). بيروت: المنظمة العربية للترجمة.
- هوركهايمر، م. (2006). *فلسفة التاريخ البرجوازية*. بيروت: دار التنوير.
- هوسرل (2012). *أزمة العلوم الأوروبية والفينومينولوجيا الترانسندنتالية*، ترجمة اسماعيل المصدق (المنظمة العربية للترجمة ، بيروت ،) ص48. (أزمة العلوم الأوروبية والفينومينولوجيا الترانسندنتالية).

Bennett, P. R. (2016). *Toward Synthetic Anthropos: Remediating Concept*. Récupéré sur www.Anthropos-lab.net.

Colleyn, M. A.-P. (2006). *The World of the Anthropologis*. New York: Oxford and New York.

Jacobs, B. &. (2003). *Essays on Kant's anthropology*. Cambridge University Press.

Jacobs, B., K. P. (2003). *Essays on Kant's anthropology*. Cambridge University.

kant. (2018, 5 11). *The Idealism Of Kant And Hegel*. Récupéré sur <https://www.britannica.com/topic/philosophical-anthropology/The-idealism-of-Kant-and-Hege>.

Paul, R. (1997). *Essays on the Anthropology of Reason, Princeton: Princeton University Press, (1997), p 29*. . Princeton: Princeton University Press.

Paul, R. (2007). *Marking Time: On the Anthropology of the Contemporary*. Princeton: Princeton: University Press.

Rabinow, P. (1996). *Representations are social Facte: Modernity and Postmodernity in Anthropology*. Berkeley: Berkeley:Univ.Calif .press.

Rabinow, P. (2006). *Essays on the Anthropology of Reason*. Princeton.

Roubt, M. .. (2006). *Kant: anthropology from a pragmatic point of view*. . Cambridge University Press.